

بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية في غرب أوروبا واجتياح البائدة الجرمان غرب أوروبا تغير المجتمع الأوروبي تغيراً أساسياً، كان له أثره الكبير على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية. ومن جراء الهجرات الجرمانية إلى جوف أوروبا أصححت مدن أوروبا غير آمنة على نفسها، ولذلك انتقل أعيان المدن إلى قصورهم في الريف وأحاطوا أنفسهم بهم بأتباعهم وأعوانهم، يضاف إلى ذلك تواجد بعض الأديرة التي كان رهبانها يزرعون الأرض ويشغلون ببعض الصناعات اليدوية. ومع عدم إمكان الاتصال بين المدن والقرى سعى الأعيان إلى الاكتفاء الذاتي داخل القرية وبدأت الضياع تصنع Theuderic العديد من البضائع التي كانت تشتريها من المدينة، ودولة القوط الشرقيون في إيطاليا بقيادة ملكها ثيودريك (م) على سبيل المثال نجد أن الملوك الميروفنجيين ومن بعدهم الملوك الكارولنجيين أخذوا يؤجرون أو يمنحون 493-526) قوادهم وموظفيهم مساحات من الأرض أصبحت شبه مستقلة، ومن هنا أقام هؤلاء الأعيان الذين يطلق عليهم البارونات بالإضافة إلى الأساقفة أو رؤساء الأديرة نظاماً محلياً في المناطق الخاصة بهم، وقد تقبل الأهل هذا النظام عن طيب خاطر طالما أصبح هذا النظام هو الكفيل بحمايتهم مما يحيط بهم من أخطار. وقد واكب هذه العملية قيام الفلاحين ببناء منازلهم بالقرب من قصور البارون الحصين أو الدير المنيع، ويجب ألا يغيب عنا أن هؤلاء الناس الذين خضعوا للسلادة الإقطاعيين كانوا رجالاً أحراراً لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم، وكان من عادة السلادة الإقطاعيين أن يمنحوا أتباعهم قطعة من الأرض بعقد لفلاحتها ول هؤلاء السلادة حق استرداد هذه الأرض متى شاءوا. وهكذا كان الإقطاع هو خضوع الفرد اقتصادياً وعسكرياً إلى رجل أرفع منه منزلة مقابل الحماية العسكرية، والأحرار هم البارونات ورجال الدين والجنود النظاميين ومعظم التجار والصناع وأصحاب المهن، وأخيراً الفلاحين الذين يملكون أرضاً ولا يرتبطون بأي سيد إقطاعي إلا قليلاً. وكان هؤلاء الأحرار من القلة اللاتينية تطلق على رقيق الأرض والعبيد ولكن هذا Servus بحيث لم يتجاوز عددهم ربع الأهل في غرب أوروبا. كانت كلمة أي العبد. أو من الصبيان الصغار Slave لتقابل رقيق الأرض وكلمة Serf للفظ تطور مع مضي الزمن وتحول إلى كلمة وكذلك البنات الذين يتم خطبتهم من البلاد الإسلامية أو اليونان أو البلاد الممتدة على سواحل آسيا الغربية والبحر الأسود وشمال إفريقيا. ثم دفع الجشع هؤلاء التجار إلى بيع آلاف الأطفال المسيحيين الذين كونوا حملة الأطفال في عام ١٢١٢ م إلى البلاد (م) قد أعتق إثنين من 590-604 Gregory 1 الإسلامية في الشام ومصر وشمال إفريقيا. وإذا كان البابا جريجوري الأول عبيده وقال أن للناس جميعاً الحق الطبيعي في الحرية، كما أنه حرم على العبيد أن يصحبوا رجال دين أو يتزوجوا من نساء مسيحيات أحرار. ومفرد الأقنان (قن) وهو الرجل الفلاح الذي يعيش على قطعة من الأرض يمنحها إياه أو يملكها له السيد الإقطاعي، وكان هذا القن يملك هذه الأرض أو تؤجر له مدى الحياة مقابل أن يمنحه السيد الإقطاعي حمايته العسكرية، وفي نظير ذلك يؤدي له القن أجراً من الغلال أو العمل أو المال. والقن مربوط بهذه الأرض ولا يملك حرية الانتقال منها، وإذا مات هذا القن فلا تنتقل قطعة الأرض إلى ورثته إلا بموافقة السيد الإقطاعي. وإذا كانت هذه الأسس الرئيسية التي تقام عليها العلاقة بين السيد الإقطاعي والقن فهناك روابط أخرى تربط القن بالسيد الإقطاعي وبالأرض الممنوحة له. لذلك فضل القن البقاء في وسط مجموعة وأرض مولد وترب فيها وعمل بها. فإن جماعات الأقنان عاشت في الأرض الممنوحة لهم أجيالاً بعد أخرى دون طرد أو حرمان. والواقع إنه من الأفضل للسيد الإقطاعي الجديد أن يشترى الأرض وما عليها من الأقنان الذين أصححوها وأفلحوها وبإمكانهم التعامل معها بكل سهولة. ويمكن القول على ضوء ما سبق أن علاقة القن بالسيد الإقطاعي كانت ذات شقين: فهي تبعية اقتصادية، ولكن هذا المفهوم تغير مع الزمن حيث أصحح من الجائز أن يكون هناك ارتباط شخصي فقط بين القن والسيد الإقطاعي دون أن يكون لدى القن أي قطعة من أرض السيد الإقطاعي. وأصحح القن الذي يرتبط بالأرض منفصلاً عن القن الذي يؤدي واجبات معينة للسيد الإقطاعي مثل الحراسة أو العمل في مخبز السيد الإقطاعي أو طاحونته أو غير ذلك من الأعمال المرتبطة بالزراعة. مع الأخذ في الاعتبار أن الحالة الجديدة لم تشمل كل الأقنان بل ظلت جهات كثيرة تسير طبقاً للأوضاع القديمة من الجمود والظلم حتى بداية التاريخ الحديث. وحتى نتفهم الحالة الواقعية للأقنان فيجدر بنا أن نعدد الواجبات الإقطاعية التي كان على الأقنان أن يؤديها للسيد الإقطاعي ومن أهم هذه الواجبات: وعلى القن أن يدفع كل عام جزءاً من غلاته وماشيتته تصل إلى حدود العشر، وكان القن في هذه الأيام يقوم بالأعمال العامة مثل إقامة الجسور أو تقطيع أشجار الغابات أو تجفيف المس تنقعات، ومن المس لم به إن على القن أن يطحن حبوبه ويخبز خبزه ويعصر نبيذه عند السيد الإقطاعي مقابل مبلغ محدد، وإذا اقتضى الأمر وكان للقن قضية فعليه أن يرفعها أمام محكمة السيد الإقطاعي مقابل رسوم معينة تختلف حسب نوع القضية. ويلاحظ أنه لم يسمح للأقنان ببيع ما يفيض منهم إلا بعد ما يفرغ السيد

الإقطاعيين بيع ما عنده بأس جوعين، وعلى القن أن يدفع غرامة معينة إذا أرسل ابنه للمدرسة أو ليلتحق بالكنيسة لأن الضيعة سوف تخسر هذه القوة البشرية. ورغم هذا كله فقد ظل الأقبان حتى القرن الثالث عشر الميلادي ينظرون إلى السيد الإقطاعي نظرة إعجاب وربما نظرة الحب في بعض الأحيان باعتباره المدافع الأول عنهم ضد أخطار الزمان. وإذا ألقينا نظرة على الحياة العامة للفلاح نكون قد أوضحنا صورة كافية عن حياة الأقبان في تلك المرحلة، وبداية نقول أن الفلاح كان يسكن كوخا من الخشب يعلوه سقف كان من الخشب غالبا، أما عن ملابس القن أو الفلاح فقد كان قميصا من القماش أو جلد الحيوان وعليه ستر أو من الصوف أو من الجلد وسروالا، وإنه يتحمل كل هذا من أجل حياته وحياة أسرته وحياة السيد الإقطاعي والآخرين الذين يعيشون حوله. وعاش مع أقرانه في القرية حياتهم البسيطة يجتمعون في المناسبات وأيام الأعياد والأحادي في مساحة القرية أو الكنيسة. وعلينا أيضا أن نعرف أنه كان أميا غير مثقف ليس لديه معرفة عن شيء سوى الزراعة وأعمال القرية التي تكفل له الحياة التي اقتنع بها. وكان مهيدا إما بحرق أو قحط أو مجاعة تأتي على كوخه أو حيواناته أو مزروعاته مثلا تعرضت فرنسا لقحط أهلك الزرع والنسل، وكانت شخصيات العمدة من الأهمية داخل القرية فهو الذي ينسق نشاط الفلاحين الزراعي، كما تخصص البعض في الأعمال اليدوية فنجد الحداد ودباغ الجلود والنجار الذي يصنع أثاث المنزل والأكوخ وصانع العربات والقصار والصباغ والبناء والسروجي وصانع الأحذية وغير ذلك من الأشياء التي يحتاجها المنزل القروي على فترات متباعدة. يترك أحدها للراحة ولا يزرع أما القس حان الآخرون فقد كان أحدهما يزرع شعيرا أو شوفانا والآخر يزرع قمحا. وتولى موظفو القرية تسليم كل قطعة أو أكثر إلى أحد الفلاحين لزراعتها طبقا للخطة الموضوعة، وكان الفلاحون جميعا يتولون العملية الزراعية من حرث وبذر ورعاية وحصاد متعاونين قانعين بهذه الحياة. فإذا ما فرغ الفلاحون من هذه الأعمال أو ربما أثناءها كان عليهم أن يقوموا بقطع الأشجار ورعي الماشية، ثم تطور الأمر واستخدموا الحصان بعد ما صنعت الأطواق الجلدية التي ساعدته على الجر دون مشقة حتى أنه كان يحرث في اليوم أضعاف ما يحرثه الثور. والألعاب الرياضية مثل كرة القدم والمصارعة والهوكي أو رفع الأثقال. وتزاور الفلاحون لبعض الوقت في الأمسيات تناولوا فيها الخمر والحديث عن متاعبهم أو مسراتهم، وبهذا الصراع والكد المتواصل أطعم هؤلاء الفلاحين أنفسهم وأوروبا كلها بما عليها من السادة الإقطاعيين والجنود العاملين ورجال الدين، ووسعوا نطاق الحضارة بما اكتسبوه من معرفة أنت إليهم من المسلمين، وبيضاف إلى هؤلاء الفلاحين جماعات الرهبان الذين أقاموا أديرتهم في أراض نائية ثم ما لبثوا أن زرعوا ما حولها ودافعوا عنها بالحرب في بعض الأوقات، - النمو والنضج الإقطاعي: استغرقت عملية النمو الإقطاعي حوال قرنين من الزمان هما القرنين التاسع والعاشر الميلاديين وذلك وسط اضطرابات اجتماعية واسعة وأحداث سياسية صاخبة، وبمعنى آخر أن الدولة الكارولنجية لم تتمكن من القضاء على فكرة المحلية وإنما ما أمكنها القيام به هو وقف بناء التطور نحو المحلية في مرحلة قصيرة ولعله في البداية. فإنه بعد وفاة شارلمان وما أعقبه من إهمال مستمر في الإدارة المركزية بالإضافة إلى اشتداد غارات أهل الشمال في الشمال والمسلمين في الجنوب على جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا كان كافيا بل وتباريس بالدفاع Odo دافعا لتثبيت دعائم الحكم الإقطاعي في مراحل لاحقة وهي مراحل النضج الإقطاعي. ومن ذلك قيام أودو عن المدينة عندما هاجمها الشاليون في عامي ٨٨٩ - ٨٨٧ م، وفي هذه المرحلة أيضا نجد امتلاك الأرض أصحح مصاحبا لحق امتلاك الحكم والسלטان فاندمجت الأرض بالسلطان، حتى صارت هذه التعهدات هي القاعدة التي سارت عليها أمور الحكم ومتطلبات الأمن والحياة. ونشأ عصر من الأرسنقراطية مالكة الأرض دام إلى عصر الانقلاب الصناعي وإلى ما بعده في بعض المناطق الأوروبية. ولما كان هذا السيد المالك قد أطلق عليه أسماء مختلفة في أنحاء أوروبا منها وتعني المستشار في إنجلترا، وإذا كانت هناك واجبات تجاه الفلاحين للسيد الإقطاعي وهي ما Earl والإيرل Lord السيد بق أن ذكرناها مثل استخداف معاصر وإفران السيد المالك وغير ذلك فإن بعض الملاك كان رحيما وعامل رجاله معاملة طيبة ولم ينقل عليهم في الواجبات الملقاة على كاهلهم، وكان للمالك أيضا سلطات قضائية وعسكرية في أراضيه، ولذلك لم تكن هذه المحاكم ظالمة بالصورة التي يمكن أن نتخيلها عن العصور الوسطى، فإن الوثائق تشير إلى لجوء رقيق الأرض لهذه المحاكم لانصافهم، حتى يمكن القول أن هذه المحاكم أعطت هؤلاء الأرقاء مزيدا من الحريات وإن كانت بطيئة حتى حررت في النهاية كل رقيق الأرض، وكان هذا المسكن محاط بسور تقع داخله الأسطبلات والمخازن والمخبز ومسكن الخدم وكنيسة صغيرة وغير ذلك من لوازم الحياة. وكان الطابق الثاني هو الطابق الرئيس حيث تعقد محكمة السيد الإقطاعي في القاعة الرئيسة، ويلحق بهذه القاعة غرفة واحدة لجلوس الأسرة ونومها عندما يحين وقت النوم